إسهامات رمضان حمود
في نقد الشعر العربي الحديث

أ.د بوجمعة بوبعيو

جامعة باجي مختار - عنابة

1 - توطئة :

شهدت الأمة العربية الإسلامية شيئا من التقهقر والتذبذب في مسـيرتها التاريخيـة بعيد سقوط دولة الأندلس، في مختلف مناحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبيـة والفكرية .

وفي ضوء ما سبق ، نشأت هوة بين مرحلة حضارية متألقة ماديا وروحيا، وبـين مرحلة تالية أصبح الإنسان العربية – خلالها – رمزا للجمود والخنوع والتلاشي، وبـذلك أضحى هذا الإنسان في أمس الحاجة إلى طاقة جبارة وإرادة فولاذية للنهوض من جديـد، وأخذ مكانته بين أبناء المعمورة .

ولعل الانطلاقة التي انطلق منها هذا الإنسان تعود إلى حملة نابليون على مصر سنة 1798، حيث اطلع المصريون – على حين غفلة – على بعض المنجزات التـي أنجزهـا الغرب، فراحوا يتلملمون ويتهيأون لتغيير ما بأنفسهم بعد صدمة الإعجاب والدهشة .

ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها، بل إن سورية ولبنان شـهدتا منـذ مطلـع القرن العشرين نشاطا حثيثا في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والأدبية والفكرية.

وقد يلاحظ المتمعن في المحطات التاريخية التي لها علاقة بالجوانب الفكرية والأدبية أن بلاد الشام كانت السباقة في عملية التأثر والتأثير بحكم وجود طوائف دينية مسيحية تعاطت – بعمق – مع البعثا **إسهامات الجزائريين في النقد الأدبي القديم ــ الغبريني أنموذجا ــ**

التبشيرية، لذا فإنها جاهرت بالدعوات التجديدية في الأدب والفكر معا، فـي حـين كـان الأمر غير ذلك في مصر حيث طغت الروح التقليدية ذات الرؤية الدينية الضيقة .

فالبارودي – زعيم حركة البعث والإحياء في الشعر – ثار على الوضع الرتيـب الذي آل إليه الأدب العربي بعامة والشعر بخاصة في ظل مرحلة الانحطاط التـي مثلـت

حدا فاصلا بين الشعر في أوج تألقه خلال العصرين العباسي والأندلسي، وبين ما آل إليـه في عصر المماليك .

بيد أن ثورة البارودي التي يمكن أن نعدها مرحلة التشنّج من أجل بعث الشعر مـن جديد، لم تكن – في الواقع – ذات توجّه إلى الأمام، بل كان اتجاهها رجعيا حيـث كانـت العودة إلى إحياء النص الشعري – شكلا ومضمونا – في غياب النص المثالي (المحتـذى) الذي يمكن الانطلاق منه لمواصلة الحركة الشعرية الطبيعية المفترضة، ومن هذا المنطلق فإن ما سنّه البارودي كان عملا مشروعا – على الأقل لإعادة الثقة إلى الإنسـان العربـي الذي جرّد من أبسط الإيمان بكونه فاعلا أو أن له دورا إيجابيا في هذه الحياة .

وقد لا تغالي إذا ذهبنا إلى أن النص الإحيائي – في مجال الشعر – كان البـؤرة التي انطلق منها النقد الأدبي الحديث في تأسيس القيم الجديدة التي استقاها النقاد العرب من النقد الغربي الذي تعامل مع قيم وأسس جديدة في ضوء نشوء المذهب الرومانسي .

لقد نشأ في مصر والشام تياران متوازيان، إذن، أحدهما التيـار التقليـدي الـذي عرف بحركة البعث والإحياء بريادة البارودي وشوقي، أما التيـار الثـاني فهـو التيـار التجديدي المتأثر بالمذهب الرومانسي الغربي، وهذا التيار تشـبّع بالخصـائص الشـعرية الرومانسية الغربية من الوجهة النظرية، وحاول – من الوجهة النقديـة – أن يجعـل مـن النص الإحيائي مجالا للقياس والتطبيق، في حين أن خصـائص الشـعر التقليـدي غيـر خاضعة لمقاييس النظرية النقدية الغربية .

ولئن كانت هذه الدراسة غير معنية بمتابعة الحديث عن مـدى ملاءمـة المـنهج النقدي الذي اعتمدته حركة الديوان بزعامة العقاد إزاء شعر شوقي – مثلا – أو ما أعلنتـه الرابطة القلمية بزعامة نعيمة وجبران في مجال مفهوم التقليد والتجديد، والذي كان يصـب في نفس ما أشارت إليه حركة الديوان من مفاهيم نقدية مستمدة – أصـلا – مـن المنـابع الغربية، أو عدم ملاءمته وانسجامه مع سيرورة الشعر التراثي (التقليدي) فذلك موضـوع آخر، إنما الذي أردنا معالجته ههنا هو السؤال الذي ظل مسكوتا عنه، بحيث لم يتبلـور إلا بنسب جد محدودة في الدراسات النقدية الحديثة التي تكاد لا تخرج عن مصر والشام فـي مجال التأريخ للحركة النقدية الأدبية الحديثة ، وبمعنى آخر ما نصيب المسيرة النقدية فـي الأقطار العربية الأخرى ، وإذا لم تكن هناك حركات أدبية قائمة بذاتها كـان لهـا الـدور الفعال في الإسهامات النقدية، ألم نكن هناك أصوات فردية على الأقل ؟

إن ما سبق يقودنا إلى ذكر ناقد – ربما يعد مغمورا على الساحة النقدية العربية – بيد أن دوره ومساهماته لا تنكر ، إذ أن نظراته النقدية التجديدية ليست أقـل شـأنا مـن نظرات خليل مطران ونعيمة والعقاد ، إنه الناقد الأديب الجزائري رمضان حمود .

2 - إسهامات رمضان حمود النقدية :

لقد تميزت مواقف هذا الناقد بمستوى من الجرأة والصرامة النقديتين فـي مجـال التعامل مع النص الشعري التراثي، وكان أحد دعاة التجديد المبني على أسس تكاد تلتقـي مع حرفية ما كان يدعو إليه العقاد وغيره، ويقدم آراء تنمّ عن فهم دقيق لطبيعـة الشـعر العربي الحديث من حيث قيمه ووظائفه التبليغية، والرسالة المنوطة به في ظـل العصـر الذي يتطلب قيما تعبيرية جديدة، وصيغا وتراكيب تعبّر عن تلك القيم بحيث لم يعد الشـعر التراثي قادرا على أن يخوض فيها.

وقد يتساءل أحدنا كيف تأتّى لهذا الناقد أن يلمّ بتلك النظرات النقدية الغربيـة، وأن يستوعبها استيعابا عميقا، ليعبّر – بعد ذلك – عن آرائه الخاصة التي تنمّ عن موهبة فـذّة، وشخصية لها رصيدها المعرفي.

ومن البديهي أن هناك بواعث نفسية ذاتية، ومخيّلة خلاقـة صـاحبتها شـجاعة وجرأة ملؤها روح ثورة تكابر من أجل الوقوف ضد التقليد، وضدّ كل مـا هـو سـكوني رتيب، وأخرى اجتماعية موضوعية أسهمت في جعل هذا الرجل ينحو منحى تجديديا فـي مسيرته النقدية [1]. بيد أننا قد تضرب صفحا عن معالجة تلك البواعث في أدق تفاصـيلها لنقف عند أهمّ نظراته النقدية الفاحصة .

لقد كان اهتمام رمضان حمود بما دبّجه يراع أحمد شوقي، في مجال نظم الشـعر التقليدي من المحطات الأولى التي وقف عندها مطولا، أسوة بما فعله عباس العقاد، إلا أن حمود لم ينزل باللائمة على شعر أمير الشعراء، حيث راح – بخلاف العقـاد – يحـاول استثمار الجوانب الإيجابية التي أثارها أحمد شوقي، ولا سـيما فـي الشـعر القصصـي والمسرحي الذي كان له فضل السبق في بلورته ، وجعل غيره يسير على خطاه .

وبمعنى آخر، فإن رمضان حمود لم يضخم عيوب شوقي الشعرية بقدر مـا راح ينوّه بصنيعه في ترقية الشعر المسرحي، ولعلنا لا نحيد عن جادة الصواب إذا ذهبنا إلـى حدّ القول إن حمود قد أشاد بفعل شوقي لأنه آمن بعبقريته الشعرية التي لا تقلّ شأنا عـن عبقرية شعراء أوربا .

ولا ريب أن الناقد قد ظل ينشد التغيير والثورة على القيم الشعرية السائدة سواء على مستوى الشكل أو المضمون معا ، لذا فموقفه يبدو على درجة من الوضـــوح، فهـــا هـــو يصرّح قائلا: « قد يظن البعض أن الشعر هو ذلك الكلام الموزون المقفّى، ولو كان خاليـــا من معنى بليغ ، وروح جذابة، وأن الكلام المنثور ليس بشعر ، ولو كان أعذب من المـــاء الزلال وأطيب من زهور التلال ، وهذا ظن فاسد ... إذ الشعر كما قال "شابلن" هو النطق بالحقيقة تلك الحقيقة العميقة الشاعر بها القلب والشاعر الصادق قريب من الوحي » [2] .

فالناقد هنا ينطلق من روح ثورية هدامة بناءة، كما هو الشأن عند ميخائيـــل نعيمـــة والعقاد [3] .

إنه يقف موقفا ثائرا على قدسية الوزن والقافية ، ولا يراهمـــا مـــن ضـــرورات الشعر الحداثي ، إذ أن الشعرية الكامنة في النثر ، كما هي كامنة في الشعر ، ومـــن ثمـــة فإن له رأيا واضحا من عمود الشعر يلتقي مع ما ذهب إليه العقاد ونعيمة مع نهاية العقـــد الثاني من القرن العشرين ، والذين يلتقون جميعا مع ما سنّه المذهب الرومانســـي الغربـــي الذي لخّص مفهوم الشعر في التعبير عن كنه الحقيقة وفق ما تترآى للنفس البشـــرية التـــي تنطلق من جوهر الحياة ، وننشد الثورة والتغيير من أجل بلوغ الحقيقة المنشودة .

ولعل البحث عن الحقيقة وفق المفهوم الرومانسي يقودنا إلـــى عنصـــر الصـــدق والكذب المرتبط بالمشاعر والأحاسيس ، فالناقد حمود لم يخرج عما سنه الرومانســـيون ، إذ يؤكد أن الشعر تيار كهربائي «مركزه الروح ، وخيال لطيف يقذفه الـــنفس ، لا دخـــل للوزن ولا القافية في ماهيته ، وغاية أمرهما أنهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق » [4] .

« وهو بذلك يشير إلى مزالق الجمالية العربية التي اعتمدت في ذوقها الفني علـــى العقل الذي قادها إلى الاتجاه الحسي الذي يعتمد على القاعدة والشكل ، مما انتهى بها إلـــى الصناعة والتكلف . فقد كان ارتباط الشعر بالعقل يلتقي مع مفهوم الصناعة التـــي نجـــدها واضحة لدى النقاد البلاغيين العرب منذ القرن الثالث ... مما جعل الشـــعر ضـــربا مـــن القول يكتسب بتعاليم الأصول ويمارسها طويلا » [5] .

وأيا كان الأمر ، فإن حمود قد غالى – بعض الشيء – في هجومه علـــى هيمنـــة اللغويين على مقاييس النقد التراثي بعامة ، لا سيما حين يقلل من شأن الضوابط النحويـــة واللغوية والبلاغية في علاقتها بالقول الشعري المنبثق عن الذات الشاعرة المستمد إبـــداعها من أعماق القلب ولواعج النفس الإنسانية [6] .

وصفوة القول، إن تعريفات الشعر التي بثها حمود في غير موضع تكـاد تختـزل في التعريفات الرومانسية التي تنطلق من الوجدان وتعود إليه، كما ذهب إلـى ذلـك عبـد الرحمن شكري :

ألا يا طائر الفردوس إن الشعـــر وجدان

3 - رسالة الشعر :

لا ريب أن كل مذهب أدبي عبر المسيرة التاريخية يؤمن برسـالة معينـة علـى الأديب أن يؤديها نحو مجتمعه أو نحو الإنسانية بوجه عام ، وإن اختلفـت طبيعـة هـذه الرسالة والغاية المنشودة من ورائها والآليات المستعملة لتبليغها . وإذا كان ناقدنا قد استمد مفهومه لتلك الرسالة من المذهب الرومانسي الذي ينتمي إليه ، ولعله كـان يركـز علـى الوظيفة ، ويبدو أن الظروف السياسية التي كان المجتمع الجزائري يعيش تحـت وطأتهـا وجّهت الناقد وجهة معينة ، لاحظ كيف كان متأثرا بظروف الزمان والمكان : « إن البلاد تحتضر فهي لا محالة هالكة ، إن لم يتداركها أبناؤها ، وكل شخص مهما صـغر مكانـه مسؤول ... إن لم يكن لها من المتداركين » [7] .

ومن السياق العام لهذا النص، يتضح أن الناقد يدعو إلى أدب الثـورة أو الأديـب الثائر الذي يحرّك النفوس الساكنة، ويوقظ الضمائر الميّتة والهمم الخائرة، وقد يقول قائـل كيف للأدب الرومانسي الهروبي أن يكون أدبا ثائرا ؟

وللإجابة نقول إن الأدب الرومانسي جاء – في الواقع – ليمثل ثـورة إصـلاحية شاملة، وما وتخلله أحيانا من هروب ولجوء إلى الطبيعة، واعتزال العالم ... الخ، ما ذلـك إلا آلية من آليات الثورة الشاملة التي شملتها فلسفة هذا المذهب. ومن ثمة ، فحمـود لـم يخرج عن السائد والمألوف في هذا المذهب ، بل إن الظرف كان مواتيا لينشئ ما أنشأ .

ويكاد حمود أن يحمّل الوظيفة الاجتماعية للأدب أكثر مما تحتمل بحيـث يجعـل الوظائف الأخرى غير ذات بال ، حين يقول : « الشعر الذي لا يحرّك نفوس العامة ، ولا يذكرها في واجبها المقدس ووطنها المفدى ، فهو خيانة كبرى » [8].

إن الأدب – أحيانا – يجب أن يتخلى – ولو فنيا – عن حلّته البديعة ولغته الراقيـة، وديباجته المشرقة لينزل إلى مستوى الطبقة الدنيا ليتمكن من الولوج إلى أعماقها وتحريـك سواكنها ، ولا ضير في ذلك ما دام هذا الأدب يتّسم بوظيفة اجتماعية ورسالة سامية ، لـذا

على « الشعراء الكبار أن يتنازلوا إلى مخاطبة الطبقة الوسطى والسفلى مـن الأمـة ، أي العامة التي هي هيكل الشعوب ومرجعها الوحيد عند المدلهمات » [9].

والواقع أن الناقد قد أخضع الشعر لما يمكن أن نسمه بالظرفية ، إذ يجعل مقيـاس الشعر متغيرا بتغير ظروف الحياة ، وحتى إن سلمنا بأن الثورة التـي أنجزهـا الشـعب الجزائري كانت سببا من الأسباب التي جعلت الناقد يذهب هذا المـذهب ، فـإن للشـعر أصول ومقاييس يجب أن تظل قائمة .

وقد يبدو الأمر في غاية من التناقض، إذ كيف نريد للشعر أن يكون غنيا بالقيم الجمالية والمتعة الخيالية وأن تكون لغته انزياحية ، ثم نريد أن يكون غير ذلك في الآن نفسه ؟

وبالنظر إلى أن المقام لا يتسع في مثل هذه الدراسة المحـدودة بزمـان ومكـان للخوض في مختلف المواقف النقدية التي أدلى فيها الناقد بدلوه، فإننا نخلص إلى التالي:

1 – يمكن النظر إلى رمضان حمود على أنه واحد من أقطاب النقد العربي الحديث الـذين أرسوا دعائم النظرية الرومانسية في الشعر العربي .

2 – على الرغم من أن مبدأ التجديد في الشعر العربي الحديث ظل هاجسا يؤرق الناقـد، إلا أن كثيرا من هذه المواقف تراوحت بين التذبذب أحيانا، والارتجالية التي تبلغ مسـتوى السطحية أحيانا أخرى .

3 – قد ينظر إلى هذا الناقد على أنه بلغ – في مجال الثورة على الوزن والقافية – مرحلة متقدمة تؤهله لأن يكون استشرافيا، وأحد الممهدين لظهور حركة الشعر الحر، إلا أنه بالغ في مثل هذه الثورة التي لم تخل من مزالق وعثرات، إذ لم يضع البدائل، فأن نجد الشعرية في الشعر كما نجدها في النثر قول صحيح، لكن أن يكون الشعر نثرا والنثر شعرا فـذلك ما يختلف بشأنه كثير من الناس .

4 – تعد الفترة التي تفتحت خلالها قريحة حمود النقدية فترة تغيير شـامل فـي مختلـف مناحي الحياة ، ومن ثمة فإن عدم تريثه في إطلاق بعض الأحكام النقدية مرده إلى طبيعـة الظروف التي عايشها هذا الأديب الناقد الذي يحتل مكانة بين الكبار مـن رجـالات الأدب والنقد العربيين .

الهوامش و الإحالات :

1 – محمد ناصر ، رمضان حمود ، ص 20 . وانظر أيضا محمد الهادي السنوسي الزاهــري ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، المطبعة التونسية ، 1926 ، ص 178 .

2 – رمضان حمود ، بذور الحياة ، مكتبة الاستقامة ، تونس ، 1928 ، ص 103.

3 – انظر كتاب الغربال لنعيمة ، المقاييس الأدبية . وانظر كتاب العقــاد ، الــديوان فــي الأدب والنقد ، ط 3 ، مطابع دار الشعب ، القاهرة ، ص 115 وما بعدها .

4 - رمضان حمود ، بذور الحياة ، ص 107 .

5 – إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائــر 1991 ص 87 – 88 .

6 - رمضان حمود ، بذور الحياة ، ص 107 – 108 .

7 – المصدر نفسه ، ص 127 .

8 – المصدر نفسه ، ص 126 – 127 .

9 – المصدر نفسه ، ص 126 .